مقياس منهجية و تقنية البحث التاريخي (1) .
السنة الثانية ليسانس
المحاضرة رقم 3
مكانة التاريخ

انطلاقا من تطور مفهوم لفظ التاريخ و طبيعة المادة التاريخية و مجال اهتمام المؤرخ ، اختلفت الأراء حول تصنيف و مكانة التاريخ و تحديد مكانته في إطار المعرفة الإنسانية ، فطرحت عدة آراء مختلفة كانت مجال مناقشة الفلاسفة و العلماء و المؤرخين و مثار تساؤلات و استفسارات عدة حول طبيعة المادة التاريخية و طرائق الوصول إلى كنه الحقيقة التاريخية المجردة و الثابتة ، و هذا ما جعل المنهج التاريخي محور اهتمام المشتغلين بالتاريخ ، و ذلك منذ أن أصدر المؤرخان الفرنسيان لانجلوا (Ch.V. Langlois) (1863 – 1929 م) و سينيوبوس (Ch. Seignobos) (1845 – 1942 م) كتابهما الأساسي في المنهجية و هو المدخل إلى الدراسات التاريخية بباريس سنة 1898م .

لقد تبلور مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي النقاش المحتدم حول طبيعة التاريخ و مكانته في ثلاثة آراء مختلفة هي :

1 – التاريخ ليس علما : و هذا الرأي ينكر على التاريخ صفة العلم لعدم خضوعه للقوانين العلمية الوضعية التي تحددت معطياتها في القرن التاسع عشر ، و بذلك يكون التاريخ دون العلم بكثير لأن مادته غير ثابتة و لا قابلة للتحديد ، و أنّ الاختبار و التجربة أمران غير ممكنين في الدراسات التاريخية ، و هذا ما جعل أحد رجال الاقتصاد و المنطق ببريطانيا و هو وليم سانلي جوفوس(W.S.Jovons) (1835 - 1882 م) صاحب كتاب "مبادئ العلم" يصف التاريخ بقوله : " من السخف أن نفكر في التاريخ على أنّه علم بالمعنى الصحيح" ، و هو في رأيه هذا لا يختلف عن غيره من أصحاب المنهج الاستدلالي التجريبى الذين لا يسلمون بعلمية الدراسات الإنسانية و الاجتماعية بما فيها التاريخ .

و قد تأثر بذلك بعض المفكرين الذين لم يكن اهتمامهم ينحصر فقط في دراسة التاريخ مثل الفرنسي بول فاليري (Paul Valéry) (1871-1954م) الذي ذكر في كتابه نظرات على العالم المعاصر ما يلي : "إننا لم نتجاوز إلى الآن في مجال التاريخ السياسي حد الاعتبارات السلبية و الملاحظات المضطربة... فالتاريخ يسوغ ما نريد و لا يلقن علما بمعناه الدقيق ، إذ هو يحتوي على شيء و يورد كل النماذج" .

2 – التاريخ فوق العلم : رأي ثان يعتبر التاريخ فوق العلم بكثير ، لأنّ العلم لا يقدم في الواقع إلا حقائق جافة ، بينما التاريخ يجمع المادة العلمية إلى التصور الأدبي ، فالأحداث الماضية تحتاج إلى براعة الكاتب لتبرز في الثوب اللائق بها ، و لتصبح قوة فعالة في عالمنا هذا ، و هذا ما يُفهم من قول الأستاذ البريطاني تريفليان (G.M.Trevelyan) (1871 – 1962 م) : " من كان فاقد الانفعال و الحماسة فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدا" ، و مرّد هذه النظرة إلى التاريخ كون مادته تعكس حياة الأفراد و الأمم ، فهو من أكثر العلوم حاجة إلى الموضوعية العلمية ، و من أكثر الاختصاصات التصاقا بالوعي و الشعور الذي تعكسه حاجاتنا و إمكانياتنا ، و هذا أكده تريفليان بقوله : "إنّ التاريخ ليس له و لم يكن له قط ما للأدب الخالص من حرية أدبية ، بل لا بدّ له أن يكون خادما للحقيقة و إلا فقد اسمه ، و لا ينبغي أن يستمد أخباره من الخيال كما هي الحال في الشعر و القصص ، بل يجب أن تكون قائمة على المنهج العلمي القاسي الذي يقصد به إظهار حقيقة الماضي" .

3 – علم التاريخ : و هذا الرأي يؤكد على أنّ التاريخ علم لا أكثر و لا أقل اعتمادا على خصائص المادة التاريخية و طرق البحث المرتبطة بها ، و هذا ما صرّح به لأول مرة الأستاذ البريطاني بيوري (J.B.Bury) (1861 – 1927 م) بقوله : "التاريخ علم ليس أكثر و لا أقل " ، و هو ما أصبح مسلما به الآن في غالب الأوساط العلمية ، بعد أن أكّد ذلك العديد من المؤرخين الذين التزموا بالمنهج التاريخي ، و في مقدمتهم رواد النظرة العلمية إلى التاريخ مثل الألماني ليوبولد فون راكه (L.V.Ranke) (1795 – 1886 م) و الفرنسي رينان (E.Renan) (1823 – 1892 م) و الألماني درويسن (J.G.Droysen)(1808 – 1884 م) و البريطاني ستوبس (W.Stubbs) (1825 – 1901 م) و الفرنسي سينيوبوس (Ch. Seignobos) (1845 – 1942 م) و غيرهم .

و مع الأخذ بهذا الرأي الأخير أصبح التاريخ علما يتميز بمذهبه و طريقته التي و إن اختلفت عن مناهج العلوم الطبيعية و التجريبية إلا أنها تقود بدون شك إلى الحقيقة الثابتة و المؤكدة نسبيا حسب توفر المادة و إخضاعها للنقد ، فالمنهج التاريخي لا يقل عن المنهج الوضعي العلمي ، فهو و إن لم يخضع للتجربة إلا أنّه يعتمد على الملاحظة غير المباشرة كالجيولوجيا ، فالتاريخ مثل الجيولوجيا كلاهما يبحث عن تجانس الظواهر ليستخلص ما هو مشترك بينهما ، و أسباب المشاركة في كل ظرف من ظروفها المختلفة كل الاختلاف ، و هذا ما يسمح لنا بالقول إنّ التاريخ و إن لم يكن من العلوم الناموسية ذات القوانين الحتمية فليس معنى هذا أنّه ليس بعلم ، بل هو علم بهدفه و طرقه ، و هو كغيره من العلوم يسعى وراء الحقيقة ، و له منهجه الذي لم يفتأ يتطور و يتكامل بتراكم المعرفة التاريخية ، فالمنهج التاريخي لم يكن وليد عصر واحد و إنما

نما و تطور حتى أخذ شكله المعروف الآن ، و الذي جعل المادة التاريخية تندرج في نطاق المعرفة المنظمة و المبوبة و المقننة و الهادفة إلى توخي الحقيقة على أساس حكم ناقد موضوعي لا يخضع لأي افتراض مسبق .